

مركز حمورابي



**عاصفة نوفمبر: خمسة وثلاثون عامًا على
سقوط جدار برلين وعودة ألمانيا الموحدة**

عاصفة نوفمبر: خمسة وثلاثون عامًا على سقوط جدار برلين وعودة ألمانيا الموحدة

بقلم: هشام قدرى أحمد- أسماء عبد الحفيظ نوير / مصر

مركز حمورابي للبحوث والدراسات الإستراتيجية

27 تشرين الثاني 2024

حقوق النشر محفوظة لمركز حمورابي
للبحوث والدراسات الإستراتيجية

لا يجوز نشر أي من هذه الأبحاث والدراسات والمقالات إلا
بموافقة المركز، ويجوز الاقتباس بشرط ذكر المصدر كاملاً، وليس من
الضروري أن تمثل المقالات والأبحاث والدراسات والترجمات المنشورة وجهة
نظر المركز وإنما تمثل وجهة نظر الباحث

يُصادف يوم التاسع من نوفمبر الجاري (2024) الذكرى الخامسة والثلاثون لسقوط حائط أو جدار برلين الذي ظل قائماً قرابة ثمانية وعشرين عاماً (1961- 1989) وكان رمزاً لانقسام ألمانيا وتعبيراً عن حالة الاستقطاب والتنافر الإيديولوجي التي طبعت السياسة الدوليّة أثناء الحرب الباردة، فكان سقوطه ايذاناً بانتهاء تلك الحرب بين شرق العالم وغربه وتحول النظام الدوليّ إلى مرحلة جديدة، درج علماء العلاقات الدوليّة على وصفها بالأحادية القطبيّة، نسبةً إلى انفراد الولايات المتحدة بمقاليد الهيمنة العالميّة بوصفها القطب الأوحد، كما يقترن هذا السقوط بعودة ألمانيا الموحدة كقوة أوروبيّة كبرى، تضطلع بدور وازن وفاعل داخل الجماعة الأوروبيّة.

ما إن وضعت الحرب العالميّة الثانية أوزارها (1939- 1945) وتوقفت رُحى معاركها عن الدوران بعد ست سنوات متصلة، حتى اتجهت أنظار الدول المظفرة بالنصر (دول الحلفاء) إلى ألمانيا، باعتبارها الطرف المسئول عن إطلاق شرارة هذه الحرب الكونيّة المدمرة، وقرّر المنتصرون أن سبيلهم الوحيد إلى اضعاف ألمانيا، والحيلولة دون تكرار هذه المأساة مجدداً، يكمن في تمزيق وحدتها، وعلى إثر ذلك، قُسمت الأراضي الألمانيّة إلى أربعة قطاعات بين القوى الأربع الكبرى: فرنسا، بريطانيا، الاتحاد السوفياتي، والولايات المتحدة الأمريكيّة. لكن الخلافات والصراعات الإيديولوجيّة سرعان ما أَلقت بظلالها على حلفاء الأمم، فاندلعت بينهم شرارة الحرب الباردة، والتي باتت معها ألمانيا ميداناً خصباً للمواجهة، فراحت حكومات الدول الرأسماليّة الثلاث: الولايات المتحدة، فرنسا، وبريطانيا العظمى، تعمل على توحيد قطاعاتها الثلاثة تحت إدارة وحكومة واحدة، أطلق عليها حكومة «ألمانيا الاتحاديّة»، وعلى الفور رد الاتحاد السوفياتي بخطوة مماثلة، تجسدت في إقامة حكومة تابعة له في القسم الشرقي من ألمانيا، عُرفت حينها بحكومة «ألمانيا الديمقراطيّة»، أما العاصمة برلين، فقد جرى تقسيمها هي الأخرى بين الفريقين، فصارت هناك برلين شرقيّة، وأخرى غربيّة.

وفي غضون السنوات القليلة التي أعقبت قرار التقسيم، سرعان ما تجلّى بوضوح التفاوت الاجتماعي والاقتصادي الهائل بين سكان الألمانيّتين، ففي الوقت الذي أخذت فيه عجلة الصناعة تدور في ألمانيا الغربيّة، ويرتفع معها مؤشر التنمية الاقتصاديّة، في ظل الرأسماليّة والسوق المفتوح، فإنّ ألمانيا الشرقيّة، وعلى النقيض من ذلك، كانت تعاني ركوداً هائلاً في نموها الاقتصادي، فانتشرت البطالة وتفشى الفقر بين المواطنين، وفوق هذا كلّه، كانت الأجواء السياسيّة يسودها مُناخ من القمع والاستبداد السياسي، في ظل حكومة شيوعيّة موالية للاتحاد السوفيتي.



الحدود السياسيّة بين الألمانيّتين الشريقيّة والغربيّة أثناء الحرب الباردة ١٩٤٩-١٩٩٠

المصدر: <https://2u.pw/zRZOo98e>

وأمام هذه الظروف، بدأت موجات الهجرة والنزوح من الشطر الشرقي إلى القسم الغربي، الأمر الذي انعكس سلبيًا على القطاع الانتاجي والخدمي في جمهورية ألمانيا الشريقيّة، بعد أن فقدت مئات الآلاف من الأيدي العاملة والمدرّبة لصالح جارها الغربيّة. ومع حلول عام ١٩٦٠ بلغت حصيلة المهاجرين إلى ألمانيا الغربيّة مستويات مرعبة، الأمر الذي اعتبرته ألمانيا الشريقيّة خطرًا حقيقيًا يُحدق بها، فأصبح من الضروري البحث عن وسيلة ناجعة تحد من هذه الظاهرة، خاصة وأنّ الاتحاد السوفياتي كان قد أعرب عن غضبه واستياءه الشديدين إزاء سياسة الحدود المفتوحة، التي تنتهجها حكومة ألمانيا الغربيّة، فكان بناء جدار عازل بين الألمانيّتين هو الاستراتيجية التي توصلت إليها حكومة ألمانيا الشريقيّة، بدعم من السوفييت، وكان الغرض منه تطويق وعزل برلين الشرقية ومعها ألمانيا الشريقيّة عن برلين الغربيّة تمامًا، للحد من ظاهرة النزوح والهجرة إلى أراضي القطاع الغربي.

بدأت أعمال البناء بحلول أغسطس ١٩٦١، وكان الجدار عبارة عن حائط خرساني محصن بأبراج للمراقبة يمتد بطول ١٥٥ كيلومترًا، منها نحو ٤٣ كيلومترًا في وسط برلين، بينما كان الجزء المتبقي يحيط ببرلين الغربيّة من الخارج، فيما وصل ارتفاع الجدار إلى حوالي أربعة أمتار، مما جعله حاجزًا يصعب عبوره. وعلى امتداد الجدار، شُيدت عشرات النقاط وأبراج المراقبة، حيث كان الجنود من طرف ألمانيا الشريقيّة يتولون مراقبة الحدود بشكل دائم لضمان عدم تسلل الأفراد، وتُشير الإحصائيات إلى أنّ حوالي

النجاح فقد فشل الآخرون في ذلك، ومن الملاحظ أنه منذ انشاء الجدار عام 1961 تم تطويره ثلاث مرات تقريبًا، من خلال زيادة الارتفاع وإضافة حواجز إضافية، والاستعانة بأنظمة دفاع ومراقبة متطورة، الأمر الذي ساعد كثيرًا على رصد مناطق العبور أثناء الليل وإحباط محاولات الهروب المتكررة.

يمكن القول إنَّ جدار برلين، الذي عُدَّ بمثابة ستار حديدي يرمز إلى التنافر الإيديولوجي والعداء السياسي بين المعسكرين الشرقي والغربي، قد جاء ليُجسد حالة الانقسام والتباعد، ليس فقط بين سكان ألمانيا وحدها، ولكن بين بلدان وحكومات العالم برمته خلال هذه الفترة، التي دأب المحللون على وصف الصراع فيها بأنه صراع كوكبي بين الشرق والغرب.

ظل هذا الوضع المتأزم يخيم ويحكم مسار العلاقات بين شطري ألمانيا حتى نهاية ثمانينيات القرن العشرين، حين لاحت في الأفق بوادر الاحتقان والتذمر السياسي بين أطراف المجتمعات الشيوعية في دول شرق أوروبا، والتي ضاقت ذرعًا بحكوماتها المستبدة وسياساتها الاقتصادية الهشة، التي أصابتهم بالفقر وتدني مستويات المعيشة، مقارنةً بجيرانهم في دول غرب أوروبا، وبدا واضحًا أن هذا الوضع السياسي لم يعد مُرحبًا به بعد الآن، وأنَّ الحاجة إلى التغيير والانفتاح باتت ماسةً ولا تقبل المماطلة أو التأخير، فكان انفجار الثورات في شرق أوروبا بداية النهاية للنظم الشموليَّة وزوالها.

وامتدت رياح التغيير إلى جمهورية ألمانيا الشرقية، حيث عصفت الاضطرابات السياسيَّة بالبلاد، وتحت وطأة الضغوط الشعبيَّة شرعت الحكومة في فتح أبواب حدودها المغلقة على مصراعيها أمام المواطنين، وفي أقل من أربع وعشرين ساعة تدفق ما يزيد عن المائة ألف ألماني، ليعبروا إلى الجانب الآخر من برلين، وبدأ بعضهم في هدم الجدار يوم التاسع من نوفمبر 1989، ايدانًا بسقوط هذا الستار الحديدي، الذي كان رمزًا لانكسارهم وانقسامهم لعقود طويلة، في حين أطلق المسؤولون وصناع القرار من جانب حكومتي ألمانيا الشرقية والغربية جملة من المفاوضات والاجتماعات، من أجل صياغة اتفاق جديد، يهدف إلى إعادة توحيد البلاد تحت مظلة دولة وحكومة واحدة، وهو ما تحقق بعد سقوط الجدار بعام واحد.

فبعد إجراء أول انتخابات حرة في ألمانيا الشرقية في مارس ١٩٩٠، بدأت المباحثات بين الدولتين والتي أسفرت عن توقيع معاهدة الوحدة، تلى ذلك عقد مفاوضات بشأن المسألة الألمانية بين الألمانيتين (ألمانيا الشرقية والغربية) والدول الأربع التي اضطلعت بعملية الاحتلال (فرنسا، بريطانيا، الاتحاد السوفياتي، والولايات المتحدة) فيما عُرف بمُحادثات (٢+٤)، وافقت خلالها الحكومة السوفييتية، التي كانت تعيش مرحلتها الأخيرة، على مشروع توحيد شطري ألمانيا وسحب القوات السوفييتية تدريجيًا من مناطق انتشارها في دول وسط وشرقي أوروبا.

لقد مثل انهيار «حائط برلين» في نوفمبر ١٩٨٩ م عاصفةً سياسيَّةً عنيفةً، تمخضت عنها تغيرات جذرية عميقة، ونقطة فارقة في التاريخ السياسي الدولي المعاصر، فقد كان سقوطه بمثابة النهاية لمرحلة الحرب الباردة بين الشرق والغرب، وانتصارًا للرأسمالية والنظم الديمقراطية، وانكسارًا للشيوعية.

والأنظمة الشموليّة، وقد شكّل هذا الحدث أيضاً بداية لحقبة جديدة ونظام دولي جديد، تُهيمن فيه الولايات المتحدة الأمريكيّة، باعتبارها القطب الأوحّد، كما أنه مهد الطريق لتحقيق المصالحة السياسيّة بين شطري ألمانيا، لتستعيد بذلك أراضيها الممزقة وسيادتها المنقوصة، وتمضي قُدماً في طريق البناء والإصلاح، وتُعيد رسم علاقاتها بدول الجوار على أساس التعاون وتعزيز المصالح السياسيّة والاقتصاديّة المشتركة، بعد أن أقرن اسمها بالنزعة العسكريّة التوسعيّة، وفوضى الحروب العالميّة.

بعد خمسة وثلاثون عاماً من سقوط جدار برلين واستعادة ألمانيا الممزقة لوحدها، يمكن القول إنّ التجربة النهضوية الألمانيّة تمثل نموذجاً تاريخياً غنياً بالدروس التي يمكن الاستفادة منها في تجاوز الانقسامات السياسيّة وإدارة الأزمات الاقتصاديّة على نحو فعال، فبعد أن تجاوزت ألمانيا مخاض الوحدة، نجحت في إعادة تأهيل الأجزاء الشرقيّة منها (ألمانيا الشرقيّة) ومساعدتها على الانتقال إلى السوق الحر بديلاً عن الاشتراكيّة والاقتصاد الموجه، كما نجحت في ترسيخ وتكريس أطر الاستقرار السياسي الديمقراطي. واليوم تظهر ألمانيا بوصفها إحدى الدول الصناعيّة الكبرى، وتمتلك اقتصاداً هو الأكبر داخل التكتل الأوروبي، وتأتي في المرتبة الرابعة عالمياً من حيث الناتج المحلي الإجمالي خلف الولايات المتحدة والصين الشعبيّة واليابان، كما وتعد ألمانيا من بين أربع دول (بجانب اليابان والهند والبرازيل) مرشحة لنيل العضوية الدائمة في مجلس الأمن الدوليّ التابع للأمم المتحدة في حال تمت الموافقة على إصلاح نظام التمثيل في المجلس مستقبلاً. وعلى الرغم من تقزم القوة العسكريّة الألمانيّة، مقارنة بقوتها الاقتصاديّة، إلا أنّ اندلاع الحرب الروسيّة الأوكرانيّة في فبراير 2022، وارتفاع مستوى التهديدات الأمنيّة التي تواجه القارة العجوز، دفع الحكومة الألمانيّة إلى اتباع إصلاحات جذرية في سياستها الدفاعيّة، بدءاً بزيادة نفقاتها العسكريّة إلى 2% من الناتج المحلي، وصولاً إلى تعزيز قدرات الجيش الألماني وتحديث منظومة تسليحه.

مركز حمورابي للبحوث و الدراسات الاستراتيجية

أسس مركز حمورابي للبحوث والدراسات الاستراتيجية في 25-4-2012 بمدينة بابل (الحلة)، كمركز علمي بحثي يمتد الى دراسة الموضوعات السياسية و المجتمعية بصورة علمية و استراتيجية، فضلاً عن التركيز على القضايا والظواهر الحادثة والمحملة في الشأن المحلي والأقليمي والدولي ، ويتعامل مع باحثين من مختلف التخصصات داخل العراق وخارجه، وتحتضن بغداد المقر الرئيسي للمركز.

www.hcrsiraq.net



07810234002



hcrsiraq@yahoo.com



t.me/hammurabicrss



مركز حمورابي للبحوث والدراسات الاستراتيجية



[hcrsiraq](https://www.hcrsiraq.net)



العراق - بغداد- الكرادة

